# النظرية السوسيولوجية الوضعية وسؤال التجاوز

**بقلم: د. أحمد عماد الدين خواني**
**جامعة محمد لمين دباغين سطيف2**

**ملخص:**

إن أزمة التناقضات التي تعيشها النظرية السوسيولوجية الوضعية اليوم، بمستوياتها المتعددة، لم تجد سبيلا للقطيعة رغم الجهود الحثيثة التي قدمت في هذا الإطار، هل النظرية السوسيولوجية تلفظ أنفاسها الأخير مستسلمة لعبء التناقضات (حسية/لاحسية) التي تعيشها؟، ولم تستطع تجاوزها، هل النهاية التعيسة لمشروع الفهم والتحكم الوضعي للمجتمع الإنساني اقترب؟.

**تمهيد:**

يمكن مقاربة النظرية السوسيولوجية (إبستيميا) من خلال مستويين؛ خارجي: شيئي/حسي، وداخلي: تجزيئي، وسنحاول تحليل هذه المؤشرات/المستويات الإبستمية للسوسيولوجية الوضعية الغربية، الكشف عن بؤرة التناقض، والتي يمدنا البرهان بالتراجع مستويات التحليل الضرورية للوصول، حيث يمكننا " لنلاحظ التمايز والتجزئة في علم اجتماع في أوروبا، حيث كنا نتساءل أيضا حول مستقبل التعددية التي ما تزال تطبع علم اجتماع اليوم في أوربا"[1]، فالتحدي والرهان "جسيم بالنسبة لعلم اجتماع المعاصر، لأن هذا العلم يخاطر في أن يصبح بائعا لأفكار بالية مستعملة أو مجرد كتاب مدرسي ضخم عن تكنولوجيا الاجتماع [...]، إن علم اجتماع منذ بداياته ممزق بين الميول الوضعانية والميول الجدلية"[2]، وفي كتابات هوسرل يمكن ملاحظة أن" الوضعية بشكل عام وعلم اجتماع الوضعي بشكل خاص عاجزان عن القيام بـ "التماس المعني "وبالتالي فإن علم اجتماع الوضعاني لا يستطيع أن يكون متفهما، إن علم اجتماع نابع من أزمة العلوم الأوروبية ذات النزعة الوضعية"[3]، إن التعامل مع النظرية السوسيولوجية بمبدأ التجزيء كحل وشرط وضعي، تجاوزا لإشكالية الحتمية والاختيار بين الظواهر، يشكل مسألة جوهرية في التفكير العلمي الوضعي ومنهجيته، فمحاولة الذات المركزية بلوغ درجة الذات الإبستمية من خلال تجزئة الظاهرة المدروسة ومحاولة إخراج تلك الذات من الموضوع مخاطرة بالغة الخطورة، تظهر نتائجها المستحيلة في مستوى النظرية؛ أي في نهاية عملية التفكير العلمي عندما تحاول تلك الذات الرجوع لتركب وتجمع العناصر المجزئة (المحسوسة واللامحسوسة) لتحقق شروط التركيب والتعميم والاشتقاق الذين تتصف بهم النظرية (السوسيولوجية مثلا)، تكون في حالة استحالة كاملة لتعذر اجتماع النقيضين في منظومة معرفية واحدة.

---

[1]- يان سبورك، **أي مستقبل لعلم الاجتماع؟ في سبيل البحث عن معنى وفهم العالم الاجتماعي**، ت: حسن منصور الحاج، بيروت: مجد، 2009، ص 22.

[2]- نفس المرجع، ص-ص91-123.

3- نفس المرجع، 126.

إن التحليل الإبستمولوجي لأزمة النظرية سوسيولوجية الغربية، يؤكد بلا شك التناقض والصراع والاختزال الذي تعيشه الذات المفكرة الغربية (السوسيولوجية)، وتكشف المقاربة الإبستمولوجية أوهام العلمية والموضوعية التي ادعتها هذه الذات منذ عقود طويلة، "إن العقل الغربي هزته أزمة عميقة، ليس من السهل تحديد طبيعتها بدقة، وتقويم مداها، وسبر أعماقها، وتوقع نتائجها. إلا أنه يمكن تأكيد أن هذه الأزمة تكشف، في آن واحد، عن عجزنا عن فهم انبثاق الجديد وتفسيره، وتحليل الآخر والمختلف بطريقة بليغة، وتخليصنا من معارفنا "المنتجة" والمتقهقرة"[1].

**أولا- شرط الحسية واستحالة رؤية الموضوع الإيديولوجي اللاحسي:**

يقول "ديلتي" (DiiLthy) إن " الفلاسفة كما علماء الاجتماع يعملون أولا على قاعدة رؤيتهم الخاصة للعالم، إن الحي يعرف الموت لكن لا يستطيع أن يفهمه"[2]، وتأكيدا للتأثيرات الإيديولوجية يمكن أن نقدم رأي "ميردال" الذي يقول: "لا يوجد شكل آخر لدراسة الواقع الاجتماعي، غير دراسته من وجهة نظر المثل الإنسانية، فالعلم- الاجتماعي الغيري "الخالي من المصلحة" لم يوجد أبدا، ولا يمكن أن يوجد منطقيا، ويمثل مجال القيمة لمفاهيمنا الرئيسية، مصلحتنا في هذه القضية ويعطى الاتجاه لأفكارنا والمغزى لاستنتاجاتنا، فهو "أي مجال القيمة"يطرح القضايا ويقدم لها الأجوبة بآن واحد"[3]، ويؤكد "ألكس إنكلز" "أن أغلب علماء الاجتماع يصدرون في دراستهم عن نماذج تحولت لديهم إلى توجهات إيديولوجية ملزمة"[4].

إن النظرية السوسيولوجية "في فرنسا وألمانيا تظهر نشوء اتجاهات وطنية حقيقية مرتبطة بخصوصيات مجتمعاتهم الوطنية[...]، لقد كان علم اجتماع الفرنسي منذ بدايته خاضعا ولا

[1]- جيوفاني بوسينو، نقد المعرفة في علم الاجتماع، ت: محمد عرب صاصيلا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995. ص 18.

[2]- يان سبورك، 2009، ص193.

[3]- مراد زعيمي، **النظرية العلم اجتماعية رؤية إسلامية**، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة: معهد علم الاجتماع، 1997.غ م. ص 125.

[4]- نفس المرجع، ص 126.

يزال حتى اليوم للمؤثر التوجيهي النظري المتعلقة بالتكامل الاجتماعي والسياسي"[1]، فسيطرة الفلسفة الوضعية في " علم الاجتماع الفرنسي، نجد تفسيرها ببساطة من خلال تاريخ العلاقة بين علم الاجتماع والدولة الجمهورية في فرنسا، والتزام علماء الاجتماع بالدولة [...]، إن الجمهورية الثالثة [...] هي مرحلة إعداد واكتمال علم اجتماع الوضعاني الذي أصبح أحد الأعمدة النظرية والإيديولوجية للجمهورية الثالثة[...]، إن علم اجتماع ملتزم في عملية بناء هذه الجمهورية [...]، إن علم اجتماع أصبح علما قائما في النظام الجمهوري الجديد وعلما للجمهورية " [2]، من جهة أخرى فإن " النظريات الفرنسية والوضع الاجتماع في فرنسا أثروا بعمق على النظريات الاجتماع في ألمانيا [...] إن الأعمال التي تندرج في إطار هذه المقاربة [ النظرية] غالبا ما تكون إيديولوجيا"[3].

فالمنظرون في علم الاجتماع "يعالجون المجتمع الذي ينتمون إليه، فإن رؤاهم للعالم تحضر في تحليلاتهم كما في نظرياتهم [...]، إن عالم الاجتماع حر لو كان مشاهدا عن بعد، إلا أنه يبقى متورطا عن وعي في المجتمع[...]، إن النظرية كما رؤية العالم موجهتان نحو المستقبل وتساؤلات حول معنى الأعمال، وكذلك حول معنى الموجودات في إطار التاريخ" [4]، فالمشكل الذي يعيق "علم اجتماع عن بلوغه المصداقية العلمية المتحررة القائمة بذاتها لم يعد المنهج والأدوات ولا حتى المفاهيم، إنما الذي يعوق هو عدم تخليص من النزعة الذاتية العقائدية"[5]، وبالتالي كما يقول ألن تورين: "لا يمكن للنظرية السوسيولوجية أن تفرض نفسها إلا عندما يضمحل صوت الإيديولوجية السائدة، وفيما عدا ذلك يظل مضايقاً ومنفياً، وحتى تحليل المجتمع لا يسعه إلا أن يكون مجرد تعليق على التفسير الرسمي"[6].

---

[1]- يان سبورك، 2009، ص 103.

[2]- نفس المرجع ، ص 106.

[3]- نفس المرجع ، ص 109.

[4]- نفس المرجع، ص-ص 203-204.

[5]- السعيد بولمزاود، **محاولة في إعادة التأسيس للتفكير العلمي في الموضوع الاجتماع**، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة قسنطينة: قسم علم الاجتماع، 2002، غ م. ص57.

[6] Alain Touraine, **Pour la Sociologie**, paris : édition du Seuil, 1974: 89.

إن تأثر الذات المنظرة السوسيولوجية بالبعد الإيديولوجي وإعادة إنتاجه، يتجلى في عدة أمثلة تاريخية؛ "فالسياسة الخارجية للولايات المتحدة مسيرة من قبل أحد المتخصصين في العلوم الاجتماعية وهو الأستاذ كسنجر المتخرج من جامعة هارفرد، وإن الإيديولوجية المهيمنة للعلوم الاجتماعية والمنتشرة بشكل واسع في الولايات المتحدة، وعلى مساحات واسعة من العالم، تستند إلى دراسة موضوعية للواقعة الاجتماعية، وقائمة باسم علم يزعم الحياد، وعلى نتائج ستكون رهن إشارة الجميع بشكل ديمقراطي"[1]، فالذات المنظرة السوسيولوجية تعاملت مع العوائق التي حملتها المنظومة الفلسفية الغربية عند النشأة، ويوضح ذلك السوسيولوجي "نسبت" في قوله: "إن المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع خلال مرحلة نشأته الأولى، صدرت كرد للإيديولوجيات التي تضمنتها فلسفة عصر الاستنارة، والتي كانت تعلي من قدر الإنسان والفردية والعلمانية والعقل" [2]، وبذلك وبحكم "أن معظم واضعي حجر أساس علم الإجماع الغربي (كونت، سان سيمون...) والذين عملوا على تطوير "منهجه أو مناهجه العلمية" (دور كايم، باريتو، فيبر، بارسونر، لازارسفيلد...) ينتمون إلى نفس الإطار المعرفي والفكر الفلسفي" [3]

لقد اجتهدت المنظومة الفلسفية الغربية ومن بعدها -وتطبيقا لمسلماتها، النظرية السوسيولوجية الغربية على "اختزال المنهج العلمي في عناصره التجريبية الحسية وهدفت إلى مقاومة كل تفكير يخرج عن دائرة الحس سواء كان تفكيرا دينيا، أو ميتافيزيقيا أو عقليا، فهي لا

[1]- بوبوف س.ي، **نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر**، ت: نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ط2، 1984، ص 130.

[2]- عبد الباسط عبد الباسط عبد المعطي، " **في استشراف مستقبل علم الاجتماع في الوطن العربي: بيان التمرد والالتزام**"، مجلة المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986، ص 120.

[3]- فضيل دليو، **علم الاجتماع المعاصر ثنائيته النظرية والمنهجية**، قسنطينة: مؤسسة الزهراء للفنون المطبعية، 2004، ص96.

ترى المنطق السليم سوى في المعرفة الواقعية المنتزعة من الحس [...] إنها تستهل التجربة كأداة إيديولوجية لسد الطريق أمام التفكير الديني الذي قامت على أنقاضه"[1].

تبيانا لبرهان تناقض المنظومة الفلسفية الغربية في مستواها الحسي المتعلق أساسا بالايدولوجيا، نحاول إظهار ذلك من خلال الأعمال الكبرى للمنظرين السوسيولوجيين؛ كونت، دوركايم، فيبر وماركس.

كان لاحتكاك "أوغست كونت" مع الفيلسوف "سان سيمون"تأثير عميق في تشكل خيارته الفلسفية والإيديولوجية، حيث اتجه "كونت" نحو الإيديولوجيا المحافظة، والتي ظهرت من خلال كتاباته؛ "نظام السياسة الوضعية" (Système de la politique positive)، "دروس في الفلسفة الوضعية"..، ففلسفة "أوجست كونت" غير الرافضة للدين كانت أساسا للمذهبية الوضعية، وفلسفة "كارل ماركس" الرافضة للدين كانت في الحقيقة مستلهمة من كثير من المعاني الواردة في الديانة اليهودية، وكانت أساسا للمذهبية المادية"[2]، ففرنسا المتحررة حديثا من اللاهوت الكنسي لم تستطع تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي وعدت به ثورتها، فكان الوضع يشبه السوق الكبير حيث الكل يتكلم ولا أحد يشتري أو يسمع، أنه صراع بين عدة إيديولوجيات حاولت قطف ثمار الثورة؛ المحافظة والثورية والقومية والراديكالية وحتى الدينية، فحالة الفوضى استدعت ظهور تفكير وخطاب مجتمعي يفهم الوضعية ويقدم تصوراته للخروج منها؛ " فعلم الاجتماع لم يكن ضرورة معرفية فحسب، بل كان مطلبا أيديولوجيا أيضا، فكونت يرى أنه هو الحل الوسط القادر على تجاوز تناقضات القوى المحافظة والقوى الثورية أي التأليف بصورة إيجابية"[3].

إن الفلسفة الوضعية التي أسسها "كونت" كانت دوافعها إيديولوجية بحتة؛ إنها تعني الإيجابية (Positive)، و"الإيجابي" يؤيد ويساند الأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة، حيث

[1]- محمد محمد أمزيان، **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 2008، ص 103.

[2]- مراد زعيمي، مرجع سابق، ص 246.

[3]- محمد وقيدي، **ماهي الإبستمولوجيا**، الرباط: مكتبة المعارف، ط 2، 1987، ص 269.

يعتبر "التغيير"تفكير شاذ ومرفوض؛ فالتغيير "الشامل للنسق الاجتماعي قضية غير مطروحة، والتقدم لا يتم عن طريق النقد والصراع الطبقي والنشاط الثوري، بل عن طريق التوفيق بين الاتجاهات والطبقات المتصارعة"[1]، فالإصلاح حسب الفلسفة الوضعية سيتم وفق الخطة التي يحددها الساسة، فالوضعية الكونتية تستمد مسلماتها وقضايا تفكيرها "مباشرة من فلسفة التنوير، وجذورها تمتد من موقفها العدائي من الأيديولوجيات الثلاثة الرئيسية، التي كانت سائدة في عصرها، وهي؛ اللبرالية، الاشتراكية والشيوعية، محاولة الحد من انتشارها، فكانت فلسفة "كونت" الوضعية في كثير من الأسس التي قامت عليها محاولة للرد على تلك الأيديولوجيات التي لا تؤدي حسب وجهة نظره إلا إلى الصراع والتفكك والانقسام"[2].

ويؤكد كونت تمسكه بالايدولوجيا الرأسمالية والتي هي افرز طبعي للفلسفة الوضعية، لأن "المجتمع الإنساني يعيش على التنظيم أكثر مم يعيش على الأيديولوجية، وإن أفضل صورة للحياة الاقتصادية والسياسية هي الرأسمالية وبالذات الرأسمالية الأوروبية، وبالتالي هي بنظره تتويج لتاريخ التطور الإنساني" [3]، ولمواجهة مشكلة "الصراع الطبقي والصراع بين الأحزاب المحافظة، والتقدمية، حاول "كونت" أن يثبت إمكانية التوفيق وتحقيق التكامل بين الجوانب الثابتة والحركية للمجتمع، كما سبق وذكرنا بين النظام والتقدم[التغيير]؛ وفي مقابل [المنهج الماركسي] الجدلي قدم "كونت" الوضعية والمنهج الوضعي"[4].

إن النظرية السوسيولوجية التي بدأت تتشكل صورتها مع وضعية "كونت"، ليست " سوى تعبير عن الأيديولوجية الوضعية المنبثقة عن واقع المجتمع الفرنسي بعد الثورة، لابد من الرجوع إلى المناخ الاجتماعي والثقافي الذي عايشه وإلى تاريخه والفروض الخلفية الموجهة لفكره"[5]، فالسوسيولوجيا الوضعية هدفها التحكم والسيطرة انطلاقا من النظريات العقلانية

[1]- محمد عاطف غيث، 1975، ص 231.

2 سمير أمين، **التمركز الأوروبي: نحو نظرية للثقافة**، الجزائر، موفم للنشر، 1992: 163.

[3]- نفس المرجع، ص 164.

[4]- نبيل السمالوطي، **الإيديولوجية وأزمة علم الاجتماع المعاصر**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص-ص 134-136.

[5]- نفس المرجع، ص 141.

التي تكتشفها حول المجتمع، وهذه المعرف السوسيولوجية الوضعية هي محرك وموجه الإصلاح الاجتماعي.

إن النظرية السوسيولوجية الوضعية "ليست سوى تعبير عن الإيديولوجية الوضعية المنبثقة من واقع المجتمع الفرنسي بعد الثورة التي استهدفت الوقوف أمام فلسفات عصر التنوير والفلسفات الثورية"[1]، حيث يؤكد "كونت" هذا الاختيار الإيديولوجي والحتمي للنظرية الوضعية؛ فلولاه " لما أمكن أن توجد نظرية التقدم ولما أمكن تبعاً لذلك أن يوجد العلم الاجتماعي، ولما أمكن بالتالي أن توجد الفلسفة الوضعية"[2]، فالفلسفة الوضعية حسب "ماركيوز"" تلزم المفكر الاجتماعي بموقف غير نقدي في مواجهة الوضع القائم وبالتالي موفق سياسي محافظ لا يمكن اعتباره بأي حال حيادي"[3]، وبذلك تحول المنهج الوضعي العقلاني إلى معول إيديولوجي، حاول "كونت" من خلاله " إقصاء الجماهير عن إدارة المجتمع وتنظيمه، وعن رسم السياسة العليا له، على أساس أن هذه الوظيفة هي وظيفة علماء الاجتماع وخبراء التنظيم، فهذه الصفوة العلمية هي السلطة النهائية القادرة على رسم الطريق الصحيح لتحسين حالة أبناء الطبقات الدنيا، وذهب حتى إلى أنه ليس من حق الجماهير التساؤل عن أشياء تعلو قدراتهم ومؤهلاتهم"[4].

إن السوسيولوجيا الوضعية الكونتية اعتمدت "بشكل جلي على مقدمات إيديولوجية، وهذا بالطبع لا يمثل تناقضا مع إبستمولوجيته ومنهجيته فحسب بل جاء حتمية لها"[5]، فالمنهج الوضعي التجريبي يستعمل"بوضوح وصرامة كأداة إيديولوجية لتهديم أغاليط التفكير غير العلمي جميعها، وكان [كونت] يهدف كفيلسوف إلى غرس عقلية لا تفكر باصطلاحات غير

[1]- نبيل السمالوطي، مرجع سابق، ص122.

[2]- ليفي بريل، **فلسفة أوجست كونت**. ت: محمود قاسم وسيد بدوي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1952، ص 02.

[3]- عنصر العياشي، "**الإبستمولوجيا وخصوصية العلوم الإنسانية -عناصر أولية للتفكي**ر-" ملتقى نادي فلسفة العلوم، قسنطينة: معهد العلوم الاجتماعية، ديسمبر 1981.، ص 67.

[4]- سمير أمين، مرجع سابق، ص-ص 134-136.

[5]- عنصر العياشي، مرجع سابق، ص 68.

علمية، وترفض قضايا اللاهوت التقليدي والميتافيزيقي بكل بساطة على أساس أنها غير علمية"[1]، تلك هي حقيقة "التجربة فقي النزعة الوضعية، إنها ليست أداة معرفية بقدر ما هي أداة إيديولوجية"[2]، فالذات المنظرة السوسيولوجية الوضعية اختارت الإيديولوجيا كموضوع ترى من خلاله بقية المواضيع والظواهر الاجتماعية الأخرى حتى وإن لم تكن حسية (أخلاقية، تبريرية، مصلحية..).

جاءت النظرية السوسيولوجية الوظيفية مع "إميل دوركايم" تطبيقا لفلسفة الأستاذ الوضعية، لكن "دوركايم" استطاع أن ينقل النظرية السوسيولوجية من مجرد فلسفات اجتماعية حول المجتمع، إلى نظرية لها موضوعها المتمثل في الظواهر الشيئية ومنهجها الخاص التفسيري ومفاهيمها المبتكرة (تقسيم العمل، الانتحار والدين..)، فدوركايم استطاع أن يضع الإيديولوجيا المحافظة الضد ثورية في سياق تنظيري، مستخدما المنهجية العقلانية للبرهنة على صحة أهدافه الإيديولوجية، فمشاكل "المجتمع الفرنسي في عصره، جعلته يهتم بمشكلة النظام العام، وطبعت نظريته بطابع محافظ، فمن خلال مناخ فكري اجتماعي خاص، وظروف مجتمعية شهدتها فرنسا آنذاك، دفعت بعض الدارسين للقول بأن فهم علم الاجتماع عند دوركايم شأنه شأن غيره ممن عاصروه، يجب أن يبدأ من تحليل علاقته بالفكر الاشتراكي وبالحركة الاشتراكية التي سادت في عصره"[3].

فرفض دوركايم للإيديولوجيا الماركسية يعبر عن "الموقف الناشئة أصلا عن عدائه لمبدأ حتمية الصراع الطبقي في المجتمع" [4]، وقدما" بدلا من أن يتقبل فكرة المجتمع والتغير الاجتماعي، الذي تسلم بوجود الطبقات والصراع بينه، وضع نظريته المشهورة عن التماسك العضوي الذي يميز المجتمع الحديث، فكان دائما يحاول إقامة نموذج للمجتمع والتغيير يختلف

[1]- هنري أيكن، **عصر الإيديولوجية**، ت: محي الدين صبحي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، 1971، ص 143

[2]- محمد أمزيان، مرجع سابق، ص 42.

[3]- سمير أمين، مرجع سابق، ص-ص 150-151.

[4]- نبيل السمالوطي، 1975، ص156.

كلية عن النموذج الماركسي بل ويناقضه تماما، كما عمل جاهدا لإنشاء فلسفة وضعية (إيجابية) بنائية تعارض الفلسفة السلبية النقدية"[1].

إن النظرية السوسيولوجية الوظيفة كانت الغطاء العلمي للإيديولوجيا المحافظة التي حاول "دوركايم" تبريرها، فكان "يقوم بصياغة مشكلات العصر الذي عاش فيه على هيئة فروض يحاول التحقق منها"[2]، إن دوركايم "يتبع هذا المسار على المستوى النظري وعلى المستوى السياسي وذلك من خلال الالتزام في السياسة التربوية التعليمية والأخلاقية في الجمهورية"[3]، وبذلك ومن خلال النظرية الوظيفية خان دوركايم "مبادئه التي روج لها، فقد أكد على استحالة الوصول إلى الحقيقة الموضوعية، أو إقامة علم اجتماع ما لم يستطع هذا الأخير الوقوف فوق كل انتماء سياسي، لكنه فشل في التعرف على حقيقة بسيطة مفادها أن علم الاجتماع الذي أقامه حسب قواعد منهجية صارمة، كان علما منحازا وملتزما بقيم أخلاقية وسياسية ولو أنه طبق على علمه الاجتماعي نفس المعايير التي طالب الآخرين بمراعاتها، لما كان لديه حق الصراع العالي الذي أسكت به تحيز الآخرين"[4].

إن التحرر من كل "فكرة سابقة هي المقولة التي تلخص الموقف الإيديولوجي أو الدعائي للوضعية [والوظيفية]، والمقولة ليست خاطئة في أساسها، فهي واحدة من مقومات الأسلوب العلمي، ولكنها مع الوضعية تفقد دلالتها المعرفية لتأخذ بعداً إيديولوجياً؛ فمعنى أن نتحرر من كل فكرة سابقة، وأن نعتبر الظواهر الاجتماعية أشياء ندرسها كأشياء، معناه أن نسد الطريق أمام كل تفكير خارجي مهما كان مصدره ذاتياً أو دينياً في فهم الظواهر الاجتماعية، وإقصاء كل معرفة اجتماعية لا تقوم على الحس وحده، وكل تفكير ديني- بما في ذلك الوحي نفسه- يعتبر تفكيراً داخلياً استبطانياً وخارجاً عن دائرة العلم، وليس إلا ضرباً من الخيال"[5].

[1]- سمير أمين، مرجع سابق، ص-ص 167-168.

[2]- محمد علي محمد، مرجع سابق، ص 144.

[3]- يان سبورك، مرجع سابق، ص 107.

[4]- عنصر العياشي، مرجع سابق، ص 71.

[5]- محمد أمزيان، مرجع سابق، ص44.

إن النظرية السوسيولوجية للفعل الاجتماعي والتي حاول "ماكس فيبر" من خلالها "فهم المشكلات الاجتماعية المعاصرة له بألمانيا، قد تكونت من خلال حواره مع طيف "ماركس"، حاله حال "كونت" و"دوركايم"، إذ عاش ظروفا تاريخية مشابهة، هي ظروف نمو الحضارة الغربية، وما صاحب هذا النمو من مشكلات انعكست آثارها واضحة على نظم ومكونات المجتمع"[1]، فالمنطلقات الإيديولوجية واضحة عند "فيبر"، حيث أنه "يلقب من طرف "زيتلن" "بماركس البرجوازي"[2]، ويتجسد ذلك أكثر من خلال ملاحظة حياته الاجتماعية والعلمية، فلقد "كان من كبار النقاد خلال الحرب العالمية الأولى في المسائل السياسية والاقتصادية، لقد تميزت أفكاره السياسية بنزعة تحررية تعكس الجو السائد في حياته الأسرية، لكل هذه الأسباب نقول أن حياة "فيبر" انقسمت قسمة عادلة بين العلم والسياسة"[3].

إن نظرية الفعل الاجتماعي نبهت لأهمية فهم المعنى الداخلي للأفعال الاجتماعية، ويستعمل "فيبر"للوصول للمعنى الحقيقة لتلك الأفعال مفهوم "القيم"، والتي لها دور حاسم للوصول للحقيقة العلمية، "فالواقع كما يراه على غرار المذهب الكانطي المحدث: لا نهائي، مجهول، وتستحيل معرفته في كليته، وحل هذه المعضلة يتمثل في انتقاء أجزاء من الواقع حسب اهتماماتنا التي تتحدد استناد إلى القيم التي نحملها أو تنتمي إليها، في الواقع هذا هو الدور الوحيد الذي يمكن أن تقوم به القيم، فبانتهاء هذه الخطوة يجب علينا أن نضعها جانبا ونباشر التفسير السببي العلمي الذي ليس فيه للقيم دور إطلاقا، وطبعا لابد علينا من التزام قيمة وحيدة علمية هي البحث عن الحقيقة، ليس هذا فقط بل إن النتيجة النهائية يجب أن تكون متعلقة بأحكام الوقائع بينما يتم كبت الأحكام القيمية، إن هذا في رأينا مجرد تمويه لحكم قيمي في شكل مطلب منهجي"[4].

[1]- عنصر العياشي، مرجع سابق، ص 72.
[2]- محمد علي محمد، مرجع سابق، ص71.
[3]- نفس المرجع، ص 311.
[4]- عنصر العياشي، مرجع سابق، ص72.

ويوضح"جولدنر"سبب تركيز"فيبر" على العوامل "الدينية والقيمية كمنطلق لفهم بناء المجتمع ونظمه، وعلاقاته وتغيره، كان يستهدف في المجال الأول، دحض الماركسية التي تحاول إرجاع حركة المحتجين أو المذهب البروتستنتي إلى طبيعة التغيرات الاقتصادية داخل المجتمع الأوروبي"[1]، فأهمية النظام الديني عند "فيبر" يظهر من خلال" ما يتمخض عنه من توجهات قيمية كعامل فعال في تحديد طبيعة النظام الاقتصادي داخل المجتمع، على العكس تماما من النظرية الماركسية، التي ترى الدين والقيم والأفكار والفلسفات والإيديولوجيات، ليست سوى عناصر البناء العلوي للمجتمع، ذلك الذي يتشكل من خلال البناء الأساسي للمجتمع أو علاقات الإنتاج"[2].

إن الإيديولوجيا القومية واضحة في أعمال "فيبر" والتي كان لها أثر سلبي على رؤيته للحقيقة، "وشوهت تصوره للكثير من القضايا، مثل قضية الأخلاق البروتستانتية، وقد وصل به الجنون القومي إلى الترحيب بالحرب العالمية الأولى، واعتبر أن هذه الحرب عمل عظيم ورائع، بل إنه دافع عن حق ألمانيا في احتلال بعض المناطق"[3]، وحتى دعوته إلى نظرية سوسيولوجية متحررة من القيم "لا يبرز حرص هذا الأخير على استقلالية الجامعة والعلم من الأهواء وحسب، بل إنه يؤكد على سبب آخر هام يتمثل في الدفاع عن الدولة ومؤازرتها من خلال منع العلماء من التدخل في السياسة، من التطاحن الفئوي وتصادم القيم"[4].

إن النظرية السوسيولوجية الماركسية لا تخفي أهدافها الإيديولوجية التي واجهت بها الآلة البرجوازية الجشعة والمتسلطة، فلقد "ظهرت الماركسية كنتيجة حتمية لرفع الظلم، وحل صراعات الفكر الطبقي، وتصفية أسباب الاضطراب السياسي، بانتقادها للأسس الكلاسيكية

[1]- غاستون بوتول، **تاريخ السوسيولوجيا**، ت: محمد حقي، بيروت: منشورات عويدات، 1977، ص 53.

[2]- نبيل السمالوطي، مرجع سابق، ص 161.

[3]- نفس المرجع، ص.ص 165-166.

[4]- عنصر العياشي، مرجع سابق، ص 74.

للاقتصاد السياسي، لتحقيق العدل الاجتماعي باستنادها لحتمية الحل الديمقراطية في توزيع الثروة"[1].

من خلال المادية الجدلية كأرضية فلسفية للبرهنة على "ميكانيزمات التغيير الذي ينبغي أن يفهم في ضوء المراحل الثلاث الأزلية: الإثبات، الموضوع، نقيض الموضوع أو النفي، ثم تصالح الأضداد أو مركب الموضوع، وتستمر العملية الجدلية عند هذا المستوى بصراعات جديدة وتوافقات جديدة تتسم بها العملية التاريخية دائما"[2]، برر "ماركس" انتقال المجتمعات في نظريته المادية التاريخية؛ "فهي تنتمي إلى النزعة الحتمية الاقتصادية التي تذهب إلى أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره، وهذا العامل الذي يتكون من وسائل الإنتاج يحدد التنظيم الاجتماعي للإنتاج، هذا يعني العلاقات التي ينبغي على الناس أن يدخلوا فيها [...]، وأن هذا التنظيم الاقتصادي يشكل التنظيم السياسي والقانوني والديني والفلسفي والأدبي والعلمي والأخلاقي ذاتها"[3].

فالمجتمع الأوروبي المتحرر يتكون وفق التقسيم الماركسي من طبقتين؛ "تمثل إحداهما نظام الإنتاج البائد، بينما الثانية هي النظام الآخذ في التكوين، والصراع الطبقي هو الوسيلة التي تنقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى، واتبع هذا المنطق الجدلي في تحليله للمجتمع الغربي المعاصر الذي دعاه بالمجتمع الرأسمالي، والمنقسم إلى طبقتين: الطبقة البرجوازية أو المالكة لوسائل الإنتاج وطبقة البرولتياريا "العمال" والصراع بينهما حتمي لا مفر منه، وسوف يؤدي من خلال الوعي الطبقي والعمل العسكري إلى تدمير النظام الموجود ليرثه النظام الاشتراكي الذي يتميز بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج"[4].

إن تحليل النظرية الماركسية يبين أنها تبحث عن الحقيقة السوسيولوجية "في باطن الطبقة، فكيف تتحقق الموضوعية؟ موضوعية الفكر [...] ولذلك يبدو جليا أن النظرية

[1]- نيقولا تيماشيف، **نظرية علم الاجتماع طبيعتها تطورها**، ت: محمود عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ط6، 1982، ص 86.

[2]- نفس المرجع، ص 86.

[3]- نفس المرجع، ص 85.

[4]- نفس المرجع، ص 86.

الماركسية هي نظرية ثورية، تمثل مصالح البروليتاريا، ثم أنها تقف إلى جانب الفكر البروليتاري وحده، ومن هنا كانت الماركسية متحيزة، ثم إنها متحزبة"[1]، فالماركسية "إيديولوجيا بالمعنى الشمولي للكلمة، فهي في الوقت الذي تستخدم المنهج المادي الدياليكتيكي للكشف عن وقائع محددة تمثل جوهر النظام الرأسمالي؛ فائض القيمة، الربح، البضاعة، التناقض الأساسي والتناقضات الثانوية..، فإنها تسعى وراء مشروع سياسي كبير: بناء عالم شيوعي خال من القهر الطبقي والسياسي والاجتماعي، بناء علاقات إنسانية حرة، جديدة، وبعيدة عن الاستغلال"[2]، والذي يؤكد هذا، مبدأ "حزبية (التزام) الإيديولوجية اللينينية الذي تسترشد به الأحزاب الماركسية-اللينينية هو سلاح حاد لا بديل له في الصراع ضد التحريفية المعاصرة"[3].

إن "الموضوع الإنساني والاجتماعي على عكس الموضوع الطبيعي موضوع مزدوج: موضوع ذاتي داخلي/ وموضوع خارجي عن العقل " [4]، يتهم المفكرون " منذ نشأة علم الاجتماع وانتشار الإيديولوجية الماركسية سابقيهم بجهل القوانين الوضعية التي تسير عليها المجتمع[...]، إلا أن هذه النظرية تتغير جذريا عندما نلاحظ أن المقاربة السوسيولوجية تغيب مسألة إضفاء المعنى وتسقط في فخ "وهم الواقعية" (l'illusion réaliste) الذي يحصر الواقع في مجموعة من الممارسات الخالية من المرجعية التي تؤسسها"[5]، ويسترسل "Akoun" قائلا: "يفكر أعضاء أي مجتمع كان حول ذاته انطلاقا من أسطورة [إيديولوجية] نشأته، إن الأسطورة ليست تاريخا ميتا وضع قصد تلبية رغبة السماع إلى القصة الخيالية أو على الكيان الاجتماعي الحالي [...]، إن الحرص على وصف ظروف نشأة المجتمع يدل على الأهمية الكامنة للسؤال، ذلك ما حدث بالنسبة لنظرية العقد الاجتماعي؛ إذ اللجوء إلى أسطورة [إيديولوجية] نابعة من العقل

[1]- قباري محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 210.

[2]- يوبوف س.ي، **نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر**، ت: نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ط2، 1984، ص 53.

[3]- نفس المرجع، ص 198.

[4]- السعيد بولمزاود، مرجع سابق، ص 61.

[5]- رشيد ميموني، مرجع سابق، ص 165.

الإنساني يدل على العجز الذي وصل إليه التنظير [...]، إنها المعضلة المعرفية التي يتخبط فيها علم الاجتماع الوضعي إثر توهمه بإمكانية التوصل إلى حقائق نشأة المجتمع"[1].

إن المستوى الخارجي من التحليل الإبستمولوجي والذي يتتبع الحوار الحادث بين الذات والموضوع؛ أي كيف تدرك الذات الموضوع؟، يظهر أن النظرية السوسيولوجية متورط من خلال روادها حتى النخاع في التوظيفات والتبريرات الإيديولوجية، بل إنه من غير الممكن فهم تكون تلك النظريات تاريخيا ومعرفيا إلا بالانتباه للبعد الإيديولوجي الذي كان المنطلق والمنتهى في النظرية السوسيولوجية الوضعية، فاعتبار ظواهر المجتمع كموضوع لتلك النظرية يدرك من خلال الرؤية الإيديولوجية المسبقة للذات المنظرة، وبالتالي فهي تبحث عن عناصر غير قابلة للملاحظة الحسية التي تفترضها المنظومة الفلسفية الغربية ومن خلالها المنهج الوضعي، وكتحصيل منطقي تقع النظرية في تناقض عندما تصل في نهاياته إلى العناصر غير المحسوسة وغير القابلة للتجميع.

**ثانيا- النظرية السوسيولوجية واستحالة تجميع المجزأ:**

بعد عرضنا للمستوى الخارجي الإيديولوجي والذي يؤثر بشكل مباشر على حسية الظاهرة المدروسة، نحاول هنا تحليل المستوى الداخلي عند تجزئة الظاهرة الاجتماعية، إن علم الاجتماع "الذي يحاول فهم المجتمع غير المكتمل هو أيضا، مثل موضوعه، غير مكتمل، ومع ذلك فإن هذا العلم تنازل عبر تاريخه عن الكثير من طموحه، هذا إلى أن بدأ يصبح أكثر فأكثر "طوبولوجيا" (هندسة لا كمية) (أدورنو) [...]، إن الحالة الراهنة تشجع انزلاق علم الاجتماع إلى فكر باطني أو خبرة اجتماعية [...]، لكي يستطيع علم الاجتماع فهم المجتمع أي امتلاك المجتمع نظريا أو ذهنيا مع الآخرين هو بحاجة إلى فضاءات عامة جديدة عليه أن يبتكرها لنفسه"[2].

شكل "الموضوع" منذ نشأة السوسيولوجيا تحديا كبيرا للذات المنظرة، فكل "علماء الاجتماع أو تقريبا بحثوا عن تحديد موضوع علم الاجتماع، هذا يعني بصفة أخرى، أنه لا أحد

[1]- نفس المرجع، ص 166.

[2]- يان سبورك، 2009، ص19.

استطاع فعلا أن يصل إلى ذلك" [1]، فالاختلاف في تحديد "الموضوع" يرجع بشكل أساسي إلى البعد الإيديولوجي الذي بيناه سابقا، لأنه " بسبب العيوب الإيديولوجية والتحليلية، يكون من الصعب استخراج من البديهية الأساسية لهذا النموذج نظريات [...]، فالتوجهات التحليلية والعيوب الإيديولوجية لهذا النموذج أثرت هي الأخرى بصفة حاسمة في اختيار مواضيع البحث"[2]، حيث تعد "المفاهيم" الحجر الأساس في بناء الموضوع السوسيولوجي، وعليه يكون الاختلاف بين الذوات المنظرة راجع إلى التصورات والتمثلات الذهنية التي تجرد العناصر المادية في لحظة مقاربتها، هذه الذوات لها أطرها المعرفية والثقافية واللغوية التي تستمد منها أدوات التفكير والتعبير، والتي إذا اختلفت اختلف تحديد موضوع المعرفة، فالقيم والقواعد والرموز التي تحملها هذه الذات المتفاعلة، تشكل المسارات الطبيعية لتطور التفكير، فـ "كل حركة فكرية أو اجتماعية في تاريخ البشر قامت على أساس هذه المبادئ الثلاثة حيث تقوم لتدافع وتطالب بتحقيق قواعد وقيم معينة عن طريق رفض قواعد وقيم أخرى، وذلك عن طريق استعمال جملة من الرموز والإشارات للدلالة على غرضها"[3]، وعليه تكون "الخطابات السوسيولوجية كما خطابات العلوم الاجتماعية الأخرى تشكل جزءا من عملية التأمل الذاتي التي يقوم بها المجتمع على ذاته"[4].

إن "اليوم حتى مصطلح المجتمع أصبح ضبابيا"[5]، فأزمة الموضوع السوسيولوجي إبستيميا يرجع لإدراك الذات المنظرة والتي تنتج وتعيد إنتاج أزمة النظرية، وعليه نفهم بسهولة لماذا " أصبح علم اجتماع حزينا، ذلك لأنه أهمل بشكل واسع النقاشات المؤسسة على الكائن الحي وعلى تجارب الذوات المعيشة وعلى مخاوفهم وشكوكهم وقلقهم[...]. إن علماء الاجتماع [الذوات المنظرة] ينقطعون عن التجربة الملموسة لحياة المجتمع وعن العلاقة الحسية

[1]- Raymond Boudon, la crise de sociologie, Paris : Ed. Dalloz, 1971.p 37.

[2]- R. Raymond Aron, les étapes de la pensée sociologique, Paris : Ed. Gallimard, 1960.1967.p112.

[3]- رشيد دحدوح، **الإبستمولوجيا التكوينية عند جون بياجي (1896– 1980)**، جامعة قسنطينة: معهد الفلسفة، رسالة ماجستير، 1998،غ م. ص 346.

[4]- يان سبورك، مرجع سابق، ص36.

[5]- نفس المرجع، ص55.

والحميمة [...]، إن عالم الاجتماع لكي يتجاوز هذه المقاربة عليه أن يتموضع بوعي في المجتمع، ذلك لأن الوقائع الاجتماعي قابلة للفهم من الداخل لأن المجتمع هو عالمنا"[1]، إن تغيير المصير المأزوم للنظرية السوسيولوجية" يمكن أن تبدأ في الفكر من خلال العمل على المفاهيم "[2].

إن التركيز على المفاهيم لبناء الموضوع السوسيولوجي يفهم في سياق الاستحالة التي توصلت إليها النظرية السوسيولوجية الوضعية؛ فعندما يتم تحديد المفاهيم ثم تجزئتها منهجيا، تنتهي الذات المنظرة إلى آخر عملية التفكير الوضعي محاولة جمع المجزأ وإعادة تركيبه في صياغة تنظيرية، فيستحيل عليها ذلك لحضور عناصر غير محسوسة كنتيجة للتجزيء، إن العلم الاجتماعي "الغربي بإهماله للعناصر الأخلاقية والروحية يكون قدم لنا تفسيرات مشوهة، وقاصرة، لا تعكس حقيقة الإنسان"[3]، ومثل ذلك ما قام به أوغست كونت ضمن" فلسفته الوضعية التي أراد بها تخطي الهوة التي تفصل بين التخصصات العلمية وتجنب التقوقع الثقافي الذي يحدد التطور العالمي وذلك من خلال عمل الفيلسوف الوضعي على التنسيق بين مختلف نتائج العلوم الجزئية داخل نظرة توحيدية وشمولية ترتقي فوق طور التجزيء والتشظي الذي يتميز به العلم"[4]، فعند معالجته لمفهوم الإنسانية " كفكرة مجردة لا توجد إلا في عقل الفيلسوف الميتافيزيقي البعيد عن الواقع، ولقد حمل كونت على الميتافيزيقيا، ولكن ذلك لم يمنعه من استخدام الميتافيزيقية التي تغلب على فلسفته إلى حد كبير"[5]، وهي نفس التهمة التي "وجهها إليه أتباعه أمثال دوركايم وليفي بريل وعالم الاجتماع الفرنسي ليتري، وقد اتهموه بالاضطراب في التفكير والتناقض وخيانة المبادئ الوضعية "[6].

إن البناءات النظرية "يتمثل طموحها المعلن في ممارسة تحليل الموضوعية الاجتماعي [من جهة] وفي تحليل السلوكات الذاتية التي كونها [العلماء من جهة أخرى]، إن كل هذه الأمور

[1]- نفس المرجع ، ص 88.

[2]- نفس المرجع ، ص 91

[3]- عبد العزيز بوالشعير، مرجع سابق، ص 56.

[4]- محمد جديدي، مرجع سابق، ص 113.

[5]- مصطفى الخشاب، **أوجست كونت**، القاهرة: لجنة البيان العربي، 1950، ص85.

[6]- ليفي بريل، مرجع سابق، ص350.

تذهب في اتجاه قوننة واختزال علم الاجتماع في النهاية إلى مجرد نسق من التقنيات ومن الأفكار الفارغة من المعنى الاجتماعي والحساسية الاجتماعية[...]، من سنوات 1960 إلى 1990، يسود نشاط كبير، يبدو أنه ينتج نظريات سوسيولوجية ساكنة امتثالية، وضعية وأداتيه"[1].

أشار "كارل بوبر" إلى "استحالة تجربة النظرية أو التأكد منها، لأن النظرية بكل بساطة لا يمكن إلا نفيها، وذهب "إمر لاكاتوس" إلى أبعد من ذلك مؤكدا ليس فقط استحالة تجريب النظريات، بل استحالة نفيها أيضا؛ إنها برامج البحث ومنظوراتها النظرية هي التي تقارن ثم يختار بعضها دون غيره على المدى البعيد لصلاحيتها.أما "توماس س.كوهن"فيؤكد بكل بساطة استحالة قياس البارادايغمات (النماذج النظرية): لا يمكن تجربة بارادايغمات مختلفة إمبريقيا، لأنها هي التي تحدد نوع المعطيات الملاحظة، ودون الدخول في مناقشة معمقة لهذه المواقف، فإن الملاحظ تشكك في إمكانية اختبار النظريات"[2]، فبالرغم من "الانبهار الذي تحدثه الكثير من هذه النظريات، فنحن لن نجد فيها نظريات لمجتمع اليوم، وذلك لأن هذه النظريات تنتمي إلى عصورها فهي مهما كان فيها من تعليم إلا أنها لا تتمتع بالعلم الكلي"[3]، في التحليل النقدي " لنظريات علم اجتماع لا يتم الاكتفاء بتبيان حدود وعيوب أو الطابع الوضعي لهذه النظريات، إن الأهم من ذلك يكمن في أن هذه النظريات تتحاشى أيضا الكائن الحي، الذاتية بالمعنى والتجاوز"[4].

فالنظريات السوسيولوجية بالنسبة لماركس " ترتبط بشكل حميمي بتاريخ البشر الذي تتغير خلاله علاقاتهم الاجتماعية وشروطهم المادية[...]، إن النظريات الاجتماعية يجب أن تأخذ بالحسبان مرساها أو أساسها الاجتماعي وان لا تقدم الأفكار على أنها مستقلة لا اجتماعية ولا

[1]- يان سبورك، مرجع سابق، ص-ص 17-21.

[2]- فضيل دليو، مرجع سابق، ص 135.

[3]- يان سبورك، مرجع سابق، ص 25.

[4]- نفس المرجع، ص 33.

تاريخية (ماركس)" [1]، وهذا ما يرشح "ذاتية عالم الاجتماع المنضوي بعمق في تحليل العلاقات الاجتماع هي السبب في إمكان أن يكون علم الاجتماع نظرية نقدية للمجتمع"[2].

إن النظريات السوسيولوجية الكلاسيكية وحتى المعاصرة "تنتمي إلى عصر غير عصرنا، إنها تنتمي إلى الماضي، إن الأمر لا يتعلق بإقامة البرهان على صلاحيتها الأبدية [...] إن نظريات علم اجتماع القائمة لم تعد تتناسب مع عصورها [...] إنها تتناسب مع أوضاع يعتبر فيها الناس أنفسهم بمثابة جمع من الذرات.. إنها ليست طرق استعمال أو مجرد وصفات للمطبخ"[3]، فعلى علم الاجتماع "من أجل الدفاع عن موقعه ومن أجل تشريع نفسه وإعطاء معنى لأعماله ولوجوده، يجب أن يبتدع لنفسه نظرية تستند بطريقة ما على طبيعة ثابتة قائمة بذاتها [...] إن النظريات التقليدية "هوركايمر" تحدد بشكل جيد "الجذع المشترك" بين التيارات المسيطرة في علم اجتماع [...] ويتسرب إلى هذه السوسيولوجيا نوع من الميتافيزيقا الضامرة: انه القدر المحتوم"[4].

أما عن الكم الهائل مما "يطلق عليه اسم النظريات في علم الاجتماع، فلا سبيل لإلزامنا بإحداها، فهي علوم ضنية وليست من الحقائق العلمية التي لا يختلف فيها.بل إن مثل هذه البحوث يمكن اعتبارها من قبيل ميتافيزيقا علم الاجتماع. وهو يقابل مثيله من البحوث التي تدخل فيما يسمى بفلسفة العلوم في العلوم الطبيعية. ففي مثل بحوث هذه العلوم الاجتماعية تدنس العناصر الشخصية بفعل الأفكار السابقة التي يلبسها صاحب النظرية حلتا علمية ظاهرة بتطبيقها على بضع حوادث من غير استقرار، أو بفعل قصدي تدفع إليه هيئة عامة أو خاصة ذات سياسة خاصة وتحدد له النتيجة التي ينبغي أن يصل إليها بحثه "العلمي"،

[1]- نفس المرجع، ص83

[2]- نفس المرجع، ص 89

[3]- نفس المرجع، ص119.

[4]- نفس المرجع، ص-ص 214-216.

أو بفعل تفكير خاطئ كعدم التمييز بين السحر والدين أو عدم التمييز بين وجود الله في ذاته وفكرة الإنسان عن الله وعقيدته به"[1].

يؤكد "ب.كوهن" بأن "بعض هذه النظريات الاجتماعية غالبا ما يشبه النظريات التحليلية أو الغائية التي لا يمكن اختبارها أمبريقيا، الكثير منها لا يمثل تقارير عامة كلية، ولا تقارير عن الحقيقة، الكثير منها يتنبأ ببعض الأشياء التي تتسم بالغموض"[2]، ثم إن هذه النظريات "الظنية" قد تلعب "دور العائق الإبستمولوجي، وذلك حين تضع مجموعة من المفاهيم المتماسكة المنغلقة، وحينما يتجه سعي العالم إلى أن يحافظ دائما في عمله وهو يعمل بهدي من النظرية على تحقيق تماسكها أكثر مما يسعى إلى امتحان فاعليتها"[3]، فأزمة النظرية السوسيولوجية أصبحت واضحة وتتوسع كل يوم والتي تظهر في "تجريب الفرضيات النظرية أو النظريات التي دخلت في أزمة نتيجة انتقادات "بوبر، لاكاتوس، كوهن" (Popper, Lakatos,Kuhn لمجموعة فيينا (Kaufman Ayer, Neurath)، التي تركز على أطروحات قابلة للتجريب وتعتبر أن الاستقراء هو أساس المعرفة العلمية" [4].

إن العوائق أكبر من أمل التجاوز "وقد أشار "جولدنر" إلى تلك الصعوبات عندما قال: مما لا شك فيه أننا سوف نشعر بمدى الصعوبة التي تواجهنا عند الحديث عن النظرية في علم الاجتماع لما نجده من حشد هائل لآراء واتجاهات فكرية كثيرة ومختلفة أغلبها حول تفسير الظواهر الاجتماعية وترددها، وحينئذ وجب علينا البحث عن نقاط الاتفاق بينها، والتي يتعذر بسهولة التعرف عليها حتى بين أكثرها عمومية، وهذا الأمر إلى جانب الخلاف القائم من قبل حول تلك المسائل الميتودولوجية سوف يزيد من صعوبة مهمتنا"[5]، ويشير "أكون" (Akoun) إلى

[1]- فضيل دليو، مرجع سابق، ص 119.
[2]- مراد زعيمي، مرجع سابق، ص98.
[3]- محمد وقيدي، مرجع سابق، ص 139.
[4]- فضيل دليو، مرجع سابق، ص 135.
[5]- مراد زعيمي، مرجع سابق، ص 116.

أن "التركيبات النظرية التي توصل إليها علم الاجتماع لم تجعله يصل إلى سر اللحمة الاجتماعية"[1].

إن أسباب الأزمة مستحيلة التجاوز، لغياب "منطلقات فكرية مرجعية موحدة قادرة على التضييق من دائرة الخلاف، وهذا يبرهن على مدى خضوع هذه النظريات للنزعات الذاتية والآراء الشخصية والتوجهات المذهبية، مما يحول دون بلوغ الأهداف العلمية ويجعل من علم الاجتماع مجالاً للصراع المذهبي"[2]، ثم إن هذه النظريات "الظنية" قد تلعب "دور العائق الإبستمولوجي، وذلك حين تضع مجموعة من المفاهيم المتماسكة المنغلقة، وحينما يتجه سعي العالم إلى أن يحافظ دائما في عمله وهو يعمل بهدي من النظرية على تحقيق تماسكها أكثر مما يسعى إلى امتحان فاعليتها"[3]، ويعتبر رايت ميلز "أن أصحاب النظريات الكبرى يقدمون أطرا فكرية تصورية بالغة التجريد حتى لتبدو في صورتها النهائية "تدريبا ذهنيا" على استخدام المقولات النظرية، وبذلك تفقد "النظرية الكبرى" قوتها التوجيهية وتبتعد بالتالي عن محاولة فهم المشكلات الواقعية"[4].

**خاتمة:**

إن النظرية السوسيولوجية الغربية منظومة جزئية قائمة بذاتها، تنتمي إلى منظومة أوسع وأشمل وهي المنظومة الفلسفية الغربية (المترابطة والمتماسكة)، والتي تستمد منها مسلماتها وبديهياتها لتشكيل مفاهيمها ومناهجها، وبالتالي كمحصلة؛ فالنظرية السوسيولوجية تحتوي كل ذلك الإرث المعرفي الفلسفي الغربي، فالأزمة التي تعيشها النظرية السوسيولوجية، ما هي إلا امتداد لأزمة المنظومة الفلسفية الغربية المتناقضة، والتي بين البرهان المنهجي الإبستمولوجي عدم التوافق إلى حد التعارض بين مقدماتها ونتائجها.

[1]- رشيد ميموني، مرجع سابق، ص 169.

[2]- محمد أمزيان، مرجع سابق، ص 101.

[3]- محمد وقيدي، مرجع سابق، ص 139.

[4]- السيد الحسيني، مرجع سابق، ص.ص 203-204.

أي عندما وصلت أزمة النظرية السوسيولوجية إلى النتيجة الداخلية (تجميع الأجزاء الحسية واللاحسية) التي تناقض فيها المسلمات المعرفية الفلسفية الخارجية التي سلمت ببداهتها (الحسية)، استحالة على النظرية إيجاد الحل لتجاوز أزمتها وإعادة التوازن لمنظومتها المعرفية، فالاستحالة تشير إلى الحالة النهائية للعائق المستمر، غير قابل للقطيعة المعرفية (التناقض بين الحسي ولاحسي)، فالتراكم غير المحتمل للعوائق، والتي لا تجد حلا أو تفسيرا داخليا في المنظومة الفلسفية الوضعية، نتيجة للتناقضات التي تحدثها عملية التفكير المستمرة وبشكل خاص بين المقدمات والنتائج، نتيجة لتراكم لانهائي لغرائز وأهواء الذات المفكرة، والتي لا تقبل العلاج النفسي المعرفي، إنها الحالة الميئوس منها إبستمولوجيا، وبالتالي تدل الاستحالة عن الأزمة المزمنة لمنظومة النظرية السوسيولوجية الوضعية.

*** قائمة المراجع:**

**1- باللغة العربية:**


1. بوبوف س.ي، **نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر**، ت: نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ط2، 1984.
2. جيوفاني بوسينو، **نقد المعرفة في علم الاجتماع**، ت: محمد عرب صاصيلا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995.
3. رشيد دحدوح، **الإبستمولوجيا التكوينية عند جون بياجي (1896– 1980)**، جامعة قسنطينة : معهد الفلسفة، رسالة ماجستير، 1998،غ م.
4. السعيد بولمزاود، **محاولة في إعادة التأسيس للتفكير العلمي في الموضوع الاجتماع**، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة قسنطينة: قسم علم الاجتماع، 2002، غ م.
5. سمير أمين، التمركز الأوروبي: **نحو نظرية للثقافة**، الجزائر، موفم للنشر، 1992: 163.
6. عبد الباسط عبد الباسط عبد المعطي، " **في استشراف مستقبل علم الاجتماع في الوطن العربي: بيان التمرد والالتزام**"، مجلة المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986.

7. عبد العزيز بوالشعير، **النظام المعرفي في الفكر الإسلامي المعاصر: إسماعيل الفاروقي نموذجا دراسة تحليلية مقارنة**، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة: قسم الفلسفة، 2008.

8. عنصر العياشي، "**الإبستمولوجيا وخصوصية العلوم الإنسانية -عناصر أولية للتفكير-**" ملتقى نادي فلسفة العلوم، قسنطينة: معهد العلوم الاجتماعية، ديسمبر 1981.، ص 67.

9. غ بوتول، **تاريخ السوسيولوجيا**، ت: محمد حقي، بيروت: منشورات عويدات، 1977.

10. فضيل دليو، **علم الاجتماع المعاصر ثنائيته النظرية والمنهجية**، قسنطينة: مؤسسة الزهراء للفنون المطبعية، 2004.

11. ليفي بريل، **فلسفة أوجست كونت**. ت: محمود قاسم وسيد بدوي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1952.

12. محمد محمد أمزيان، **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 2008.

13. محمد وقيدي، **ماهي الإبستمولوجيا**، الرباط: مكتبة المعارف، ط 2، 1987.

14. مراد زعيمي، **النظرية العلم اجتماعية رؤية إسلامية**، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة: معهد علم الاجتماع، 1997، غ م.

15. مصطفى الخشاب، **أوجست كونت**، القاهرة: لجنة البيان العربي، 1950.

16. نبيل السمالوطي، **الإيديولوجية وأزمة علم الاجتماع المعاصر**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

17. نيقولا تيماشيف، **نظرية علم الاجتماع طبيعتها تطورها**، ت: محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ط6، 1982.

18. هنري أيكن، **عصر الإيديولوجية**، ت: محي الدين صبحي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، 1971.

19. يان سبورك، **أي مستقبل لعلم الاجتماع؟ في سبيل البحث عن معنى وفهم العالم الاجتماعي**، ت: حسن منصور الحاج، بيروت: مجد، 2009.

20. يوبوف س.ي، **نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر**، ت: نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ط2، 1984.

**2- باللغة الأجنبية:**

21. Alain Touraine, Pour la Sociologie, paris : édition du Seuil, 1974.

22. R. Raymond Aron, les étapes de la pensée sociologique, Paris : Ed. Gallimard, 1960., 1967.

23. Raymond Boudon, la crise de sociologie, Paris : Ed. Dalloz, 1971.